

الصلات الفكرية بين مصر والبلاد العربية

كان « الفكر » وما زال هذه الأداة الحية التي تربط بين الأمم والشعوب ، قديمها وحديثها ، سواء منها التي تتلاقى في منازعتها القومية وخصائصها الروحية أم تلك التي تثور بينها الأحقاد والخصومات وتنتهى إلى الحروب والقتال ؛ ذلك لأن عالم الفكر - عالم واسع الآماد لا يعرف حدود الزمن ولا حدود الوطن . . . فقد تثور بعض الهواجس فترسم صوراً من الخصومات ولكن ما تلبث أن تتلاشى حين يطل « الفكر » من عليائه ليرسل تلك النبرات المنطلقة من فيض الروح وفيض القلب وفيض الوجدان . . .

إن « عالم الفكر » عالم مشع تتلاقى عند آفاقه شتى الثقافات ومختلف الحضارات ، وتذوب عند أقدامه الكثير من هذه الأوشاب ، أو شاب الأحقاد والضغائن والمنازعات .

وكثيراً ما تقوم خصومة بين أمة وأمة فتثور على أثرها النفوس ، وتستيقظ الضغائن ، وتطول الخصومات ولكن ما تلبث أن تخمد ثورة النفوس وتتلاشى نيران الضغائن على صيحة شاعر فيلسوف ، أو خطبة مفكر أديب ، أو دعوة صحنى أريب يهيب بالأمميين إلى التصافي ونسيان الخصومات ودفن الأحقاد ، والعمل يداً واحدة في سبيل الألفة والأخوة والتصافي والوثام . . .

* * *

إن العالم على اتساع رقعته ، وعلى ما بين أممه من خصومات ومنازعات - نراه في عالم الفكر ، كأنه عالم واحد ، وقد رأينا في الحربين العالميتين المنصرمتين أموراً عجيبة تدل على أن « عالم الفكر » قد تحرر أو كاد من هذه القيود التي تعمل للتفريق بين منازع الأمم - بين اتجاهاتها الفكرية مثلاً . . . فقد كان الجنود الانكليز ، وهم في قتالهم الضارى مع الجنود الألمان - كانوا يجردون في موسيقى واغتر وبتهوفن هذه الروحانية المسكرة التي تنقلهم من عالم الدم والنار

إلى عالم السحر وفيض الأنغام . أى أن كرههم الأسود للألمان ما كان ليحول دون الاستمتاع بتلك النغمات العلوية التي أبدعتها الموسيقى الألمانية .

كما أن المعارك الضارية التي كان يشنها الإنكليز على الألمان ما كانت تمنع الجنود الألمان أن يشهدوا تمثيلات شكسبير . . . وإن دل هذا على شيء فعلى أن « عالم الفكر » هو العالم المثالي الذي تنشده النفوس سواء كانت في نضالها الدامى أو في تأملها الذاتى . . .

وما نقوله عن عالم الفكر ، نقوله عن عالم الأدب ، والأدب بعض أدوات الفكر . فقد كان الأدب ، وما يزال ، وسيلة من وسائل الاتصال بين الأمم والشعوب ، بل هو عنصر قوى في تحقيق هذا الاتصال . . .

ولا ينكر أحد ما للتبادل الثقافى من أثر في تنمية العلاقات بين الأمم حتى التي تختلف لغاتها وعاداتها وتقاليدها فكيف بالأمم التي تكون ذات لغات وتقاليدها وعادات واحدة ؟ .

هنا ، يلعب الأدب دوره القوي في توثيق هذه الصلات التي تزداد قوة كلما نفخ الأدباء في روحها وعملوا على دعم اسمها وتوثيق أواصرها .

ولست في حاجة لأن أقيم الدليل على صحة ما أذهب إليه في كلامي هذا ، فالصلات الفكرية بين مصر والبلاد العربية - صلات موجودة منذ القدم . وهي تزداد قوة اليوم بعد اليوم ، فقد اتجهت البلاد العربية إلى مصر منذ مئة سنة أو أكثر تنبع خطواتها في ميدان التحرر الفكرى ولا سيما وقد أتيح لمصر أن تتخلص من الكابوس العثماني قبل غيرها من البلاد العربية ، وأن توثق صلاتها بأوروبا فتغترف من ينابيعها بعض ما بيدد تلك الظلمات المتكاثفة التي كانت تحيم على ربوعها .

ولا أريد أن أوّرخ تلك الأحداث واحدة واحدة ، منذ حملة نابليون إلى عهد محمد على ، إلى المراحل التي مرت منذ تلك الفترة ، إلى يومنا هذا ، فتلك مراحل معروفة نقرأ في سطورها صفحات مشرقة من تشابك الصلات والعلاقات . ولكنى أريد أن أشير إشارة خاطفة إلى المظاهر التي كان لها أثرها في توثيق هذه الصلات . . . وهي كثيرة . . . ولأذكر في طليعة هذه العوامل المؤثرات الأدبية ؛

فقد لعب الأدب ولعبت الصحافة دورهما الكبير في تنمية هذه الصلوات . . .
فقصائد البارودي وإسماعيل صبرى وشوقى والمطران وحافظ كانت ذا أثر سحرى
في إثارة النفوس ، كما كان لمقالات الكتاب وصيحات المصلحين ، وفي طلبهم
محمد عبده وقاسم أمين وأحمد فتحى زغلول وولى الدين يكن أكبر الأثر في تنمية
العقول وهز الوسنانين .

كانت هذه الصيحات تجد صداها القوى في البلاد العربية . . . فما يكاد
شوقى يعبر عن نزعة من هذه النزعات التى كانت تحسها البلاد العربية حتى
يردد الزهاوى من العراق نبرات هذا الصدى .

أى إن الشعر والصحافة الأدبية هى التى رسمت منذ نصف قرن أو أكثر
إطار « الوحدة العربية » التى يبحثها « الرسميون » اليوم من رجالات العروبة
في أروقة الوزارات بروح من التزمّت والحذر وعدم الانطلاق ؛

وكما كان للشعر وللنثر أثرهما في التوجيه وتوثيق هذه الصلوات فقد كان
للصحافة أثرها الكبير في هذا المضمار — أريد الصحافة السياسية والأدبية معاً ،
ولا يستطيع أن ينكر أحد ما كان « للموئيد » والأهرام و « اللواء » و « المقطم »
و « المقتطف » و « الهلال » من أثر بليغ في اجتذاب النفوس إلى مصر التى
كانت ولا تزال مصدر إشعاع عظيم في توجيه البلاد العربية إلى التحرر من
العسف والظلم والجهل والتقاليد . . . ومصر منذ القدم موئل الأحرار من رجالات
الفكر من مختلف البلاد العربية . وقد كانت الصحافة سبيلهم للتعبير عن آرائهم
الإصلاحية ونزعاتهم التوجيهية .

ولتطور الصحافة المصرية ، خلال هذه الفترات التى أعقبت الحربين
العالميتين أثره البليغ في توثيق الصلوات الفكرية وتنمية العلاقات الروحية بين
مصر والبلاد العربية . فما من بيت اليوم ، في دنيا العرب ، أريد بيوت المثقفين ،
لم تدخله صحيفة من صحف مصر ، ولا سيما الصحف المصورة . إن الصحافة
المصرية تلعب دوراً خطيراً في تنمية هذه العلاقات . . . وقد زاد في قيمتها أن
مباحثها لا تقف عند حدود مصر بل تتعداها إلى حدود البلاد العربية تبحث
مشاكلها ومنازعتها القومية والاجتماعية والسياسية ، ولا يتحدث عن اهتمامها بشئون

العالم واعتمادها على مراسلين أفذاذ لهم مكاتبتهم السامية في الأروقة الدولية ؛
فهذا ما يلزمه كل متتبع للنشاط الذي تبديه الصحافة المصرية .

فقد بلغت الصحافة المصرية - والحق يقال - الأوج ، وهى ما فتئت تبذل
أعظم الجهود لتقدم للقارىء العربى أبعد ما تتطلبه نفسه فى شتى فنون المعرفة .

فالصحيفة اليومية والأسبوعية والشهرية - إن هذه الصحف تعمل ، كل
واحدة فى نظامها عمل الجبايرة لخلق الوحدة الكبرى بين الأقطار العربية ، لأنها
تمهد للوثبة المنتظرة التى يرتقبها العرب فى يوم أرجو أن لا يطول بالرغم من الصدمة
الآلئمة التى واجهتهم فى كارثة فلسطين ؛

إن مجال الكلام عن الصحافة المصرية واسع جداً وكنت أود أن
أتوسع أكثر من هذا لو كان موضوعى يقتصر على الصحافة ، بل موضوعى
هو علة هذه العلاقات التى تربط مصر بالبلاد العربية ، والصحافة من أقوى
هذه العلاقات . . .

* * *

لقد بدأت هذه العلاقات ، كما قلت ، بصيحات الشعر ، ثم بتوجيهات
الأدباء والكتاب عن طريق الصحافة . . . ثم بهذه الرحلات التى قام بها بعض
كبار الكتاب المصريين وتعرفهم على حقيقة العالم العربى وكتابتهم الكثير من
المقالات التى تشرح شئونه وشجونته . وكان العالم العربى بمختلف أقطاره ، بالنسبة
لمصر ، أشبه بالمناطق المجهولة ، وكان الشاميون والعراقيون يتندرون بالكثير من
الأخطاء الفاشية التى يقع فيها كثير من المصريين . . . ولا أضرب الأمثال فهى
كثيرة . . . ونحمد الله أن أثر هذا الجهل قد أخذ يخف ويتلاشى بفضل ما تنشره
الصحافة وما يكتبه الكتاب المصريون الذين كثرت زيارتهم إلى الأقطار العربية
وعادوا يلدنون الكثير من الآراء والأفكار . . .

وفى طليعة هؤلاء الكتاب الذين اهتموا بالشئون العربية الأساتذة الدكتور
محمود عزمى ، والملازنى ، رحمه الله ، والدكتور هيكل ، والدكتور أحمد أمين ،
وعبد الوهاب عزام ، والعبادى ، وعوض وغيرهم وغيرهم من فحول الأدباء المصريين .

* * *

هذا ، ومن العوامل التي كان لها أثرها في هذا المضمار « الفرق التمثيلية » وقد خفت زيارتها للبلاد العربية بعد أن غزت الأفلام السينمائية هذه الأقطار . . . وتوثر « الأفلام المصرية » تأثيراً بليغاً في البيئات الشعبية . ولا أريد أن أتحدث هنا عن « الفيلم المصري » وقيمه الفنية وكيف تنحدر أكثر هذه الأفلام بالنزول إلى الحضيض ، فإن أكثر القصص تقوم على مواضيع تافهة ونكات باردة ورقصات لا تمت إلى الفن بصلة ؛ إنني لا أريد هنا أن أتكلم عن الفيلم المصري الذي لم يتقدم من ناحية الفكرة عما كان عليه قبل عشر سنوات بالرغم من جميع الوسائل التي تهيأ له ، بل أخذ ينحدر ، وهو اليوم هزة الطبقات المثقفة التي كانت تريد أداة حية من أدوات النهوض بالمستوى الاجتماعي ، نعم ، إنني لا أريد أن أتكلم عن « الفيلم المصري » لأنه يخرج عن نطاق موضوعي وإن كان أثره في التقريب بين مختلف الأوساط الشعبية ، غير منكور .

إن جميع هذه العوامل كان لها تأثير مباشر في تقوية أواصر هذه الصلات التي تنمو نمواً مطرداً اليوم بعد اليوم . ولا نستطيع أن ننكر في هذا المضمار الظاهرة الجديدة في توثيق هذه العلاقات وهي اتجاه طلاب العرب إلى معاهد مصر وجامعاتها ، وقد كان أكثرهم يوجه وجهه شطر أوروبا . ثم ما تقوم به وزارة المعارف من إمداد البلاد العربية بالأساتذة المصريين يعملون في مختلف المعاهد والمدارس منذ خمس عشرة سنة تقريباً .

وللتبادل الثقافي أو « للإدارة الثقافية » أثرها الكبير في تنمية هذه الصلات، التي بدأت في المؤتمرات التي تعقدتها؛ توحد الميول وتقرب الأهداف ، وتوجه النزعات توجيهاً واحداً في شتى القضايا ولا سيما في الشؤون القومية . ولا أريد في نهاية هذا الكلام أن أنسى أكبر عامل له أثره الموجه في تنمية أواصر هذه العلاقات . وأريد به « الكتاب المصري » أو « المؤلف المصري » وهما شيء واحد . فقد عمل الكتاب الذي يصدر عن المطبعة المصرية عمله الكبير في تغذية العقل العربي وفي خلق وحدة فكرية مشتركة .

إن جميع هذه التيارات منفردة ومجتنعة هي التي مهدت لتكوين الرأي العام العربي . ولا أريد أن أشير إلى الإيماءات الرسمية التي انبثقت عنها « الجامعة العربية » ولجانها السياسية والاقتصادية والثقافية ، وقد أشرت إلى الأخيرة إشارة موجزة ، فهذا هو المرحلة الثانية لدخول هذه العلاقات في طورها الرسمي ، وهو يخرج عن صدد موضوعنا . وكل ما نرجوه ، وقد اختمرت الأذهان والعقول للوحدة الكبرى — كل ما نرجوه من الحكومات العربية ، وقد أصبح الطريق أمامها ممهداً — بحكم هذه العلاقات التي تتوثق اليوم بعد اليوم — أن يعملوا منطلقين بروح الإيماء الذي تحسه الشعوب العربية ليكون للعرب وزهم في المعترك الدولي .

سامي الكبالي